



الكولونيالية الاستيطانية في الممارسة: حالة فلسطين

ساحرة بلييلة
اختراق الجدران:
الحرب غير المرئية

توفيق حداد
إعادة إدراج الاقتصاد السياسي
في تحليل السياسات والحركة الفلسطينية

إيلان باه
النضال السياسي والأكاديمي:
حالة فلسطين

إيليا زريق
الصهيونية والاستعمار
يوسف كراج
الديموغرافيا والصراعات
في سياق إسرائيل/فلسطين:
توقعات للمستقبل

يوسف كراج*

الديموغرافيا والصراعات في إسرائيل / فلسطين: توقعات للمستقبل

شهد موضوع النزاع السكاني في فلسطين زخماً إضافياً بعد انتخابات ٢٠١٣ الأخيرة في الكنيست، حين فاز اليمين المتطرّف وأحزاب المستوطنين وفي تيّتها ضمّ ما بقي من فلسطين (مثل حزب هبايت هيهودي، أو «البيت اليهودي»). وما عادت المطالبة بدولة واحدة بدلاً من الدولتين مطالبة خافتة، بل باتت جهيرة. تعرض هذه الدراسة التوقعات السكانية والاتجاهات الديموغرافية الأحدث في فلسطين ضمن السياق السياسي الراهن؛ فالسياسة السكانية الإسرائيلية التي قامت تاريخياً على هجرة اليهود إلى فلسطين، أصبحت تعوّل على الخصوبة كرسيد أساس لتعزير الواقع السكاني اليهودي على حساب الفلسطينيين. وتتناول الدراسة اتجاهات الخصوبة عند السكان اليهود، وهي التي شهدت نمواً مطرداً منذ منتصف العقد الأخير، في مقابل تدنّ نسبي للخصوبة في صفوف الفلسطينيين. وترتكز بشكل خاص على الاتجاهات الديموغرافية في الضفة الغربية والقدس الشرقية، حيث يكسب المستوطنون ميزة على السكان الفلسطينيين في «حرب المهود»، من حيث صافي الهجرة. هذا، بالإضافة إلى الجليل الفلسطيني الذي سيصبح ربما منطقة استعمار أخرى تبعاً لتوجّهات الحكومة الجديدة. ونظراً إلى الأوضاع السكانية الحالية وتطورها المرجّح، تعرض هذه الدراسة النمو المتوقّع للمجموعات السكانية المختلفة في السنوات الخمس والثلاثين المقبلة في كامل فلسطين التاريخية، في الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزّة والجليل والنقب.

مقدمة

هناك طرق عدة لتحليل التركيبة السكانية في فلسطين التاريخية، أو بتعبير أدق بالنسبة إلى إسرائيل والأراضي الفلسطينية؛ ففي الدول «العادية»، يركّز المرء على حجم السكان والنمو الطبيعي والهجرة وبنية العمر والجنس، وبالتالي على توقّع عدد السكان في المستقبل ودراسة تأثيره في

* المعهد الوطني للدراسات السكانية، باريس.

التعليم والعمل والصحة والقطاعات الاقتصادية والاجتماعية كلها. بيد أن إسرائيل وفلسطين ليستا ما يمكن وصفه بدولة «طبيعية»؛ فحدودهما غير محددة، وعدد سكانها لا يزال في تقلب. كما يعيش عدد كبير من الفلسطينيين بشكل دائم خارج الحدود، والشتات الإسرائيلي نفسه يتزايد باستمرار.

هناك تداخل بين إسرائيل وفلسطين من خلال تاريخهما المشترك - والحافل بالصراع - وجغرافيتهما المشتركة. وحاضرهما ومستقبلهما السياسي مترابطان بشدة؛ إذن سيكون من السداجة البالغة فصل التركيبة السكانية الإسرائيلية عن التركيبة السكانية الفلسطينية.

بالنسبة إلى فلسطين «التاريخية» (أو أرض إسرائيل)، كان هناك دائماً مشروع إسرائيلي ومشروع فلسطيني مضاد، حيث النمو وديناميكية السكان مكوّنان أساسيان. في المشروع الصهيوني، كانت الزيادة في عدد السكان اليهود وما صاحبها من انخفاض في عدد السكان الفلسطينيين هدفاً استراتيجياً منذ بداية الاستيطان اليهودي في فلسطين أواخر القرن التاسع عشر، قبل صراع ١٩٤٨ وبعده.

كان هذا المشروع الديموغرافي، ولا يزال، «سكانيًا» (زيادة السكان) وضد تحديد النسل (زيادة الخصوبة والمواليد). والأسباب واضحة: فقلة السكان اليهود الأصليين في البداية دفعت إلى الاعتماد بشكل شبه كامل على الهجرة. وهذه حقيقة معروفة جيداً طالما أُذيعت وأُخضعت للدراسة المستفيضة. ولكن مكون الخصوبة، أي القدرة على ولادة الأطفال بأعداد كبيرة، أكثر تأثيراً، وإن يكن أقل تناولاً.

من وجهة النظر هذه، سجلت إسرائيل الراهنة (سنة ٢٠١٤) سلسلة من النجاحات؛ فالخصوبة اليهودية في إسرائيل مرتفعة جداً (وفق المعايير الغربية والعالمية). وهي مرتفعة ليس فقط لدى اليهود المتزمتين والمتدينين (ربع السكان)، بل أيضاً لدى شرائح المجتمع كافة. وكنتيجة مباشرة، انخرط الفلسطينيون أيضاً في «معركة أرقام»، أو «حرب مُهود» حتى قبل إقامة دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨. ولحماية أنفسهم من الهجرة اليهودية، كان لديهم ثروة وحيدة هي الخصوبة، لأن هجرتهم من الخارج اقتصرت على عدد قليل جداً من المهاجرين العائدين.

إن دور الديموغرافيا في تشكيل مستقبل الدول مسألة مطروقة باستمرار، ولن نسهب فيها لأنها دُرست على نطاق واسع. والتساؤل السياسي الرئيس اليوم، في فلسطين وإسرائيل على السواء، هو: هل سيكون هناك دولة واحدة أم دولتان، وفي هذه الحالة، كيف سيكون شكل الدولة الفلسطينية؟ إن الديناميات السكانية للسكان اليهود والفلسطينيين تمارس تأثيراً كبيراً على القرارات بهذا الخصوص، ولا سيما من جانب السلطات الإسرائيلية. ومن هنا تأتي أهمية التوقعات السكانية على المدى المتوسط والطويل.

نظرة سريعة إلى الماضي

على امتداد فترة طويلة، ولنقل منذ بداية الانتداب البريطاني حتى الانتفاضة الثانية (١٩٢٢-٢٠٠٠)، اعتُبر النمو السكاني ومعدل الخصوبة الفلسطيني شذوذاً في نموذج التحوّل الديموغرافي؛ فارتفاع مستويي التعليم والتحصن لدى الفلسطينيين، وكذلك انخفاض مستوى الدخل، كانا يفترضان خصوبة أقل من المسجّل فعلاً. ولكن الخصوبة اليهودية الإسرائيلية أيضاً حالة شاذة، لأنها جمعت كل العوامل التي تحول دون الخصوبة (التعليم والتحصن والانفتاح والعولمة ومستوى المعيشة). ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه العوامل، ظلت الخصوبة اليهودية مرتفعة، والمحيّر أكثر أنها مستمرة في الزيادة؛ فإجمالي

معدل الخصوبة ارتفع من ٦, ٢ طفل لكل امرأة في سنة ١٩٩٠ إلى ٣, ٠٤ في سنة ٢٠١٢، وهو ضعف معدل دول أوروبا الغربية. واللافت أن هذا المعدل بين يهود الشتات هو ١, ٥ فقط. وبالتالي، من المرجح أن يتجاوز المعدل اليهودي المعدل الفلسطيني، وهذا أكيد حيال معدل فلسطيني ١٩٤٨ الذي يبلغ الآن ٣, ٣٢، ولاحقاً سيتجاوز معدل فلسطيني الضفة الغربية والقدس (٣, ٨) الذي يتناقص بسرعة. تسير خصوبة الفلسطينيين واليهود باتجاهين متعاكسين. والحقيقة أن الخصوبة الفلسطينية ارتفعت في أثناء الانتفاضة الأولى؛ إذ اعتبرت سلطات منظمة التحرير الفلسطينية والرئيس عرفات نفسه أنها وسيلة فعالة لمواجهة الاحتلال والاستعمار. وجميعنا يتذكر تصريح ياسر عرفات الذي قال فيه إن الرحم الفلسطيني هو السلاح الأقوى وإن على الأسرة الفلسطينية أن تنجب ١٢ طفلاً، اثنان للزوجين وعشرة لـ«القضية». لكن هذا الوضع لم يدم طويلاً، والخصوبة الفلسطينية لم تقاوم الانتفاضة الثانية. وتختلف الأرقام قليلاً بين تقديرات وزارة الصحة التي تستند إلى تسجيل المواليد، وتقديرات الجهاز المركزي الفلسطيني للإحصاء التي تستند إلى الإحصاءات والمسوحات السكانية. ولذلك، وعلى الرغم من الارتفاع إلى الرقم ٣, ٨، فهو ليس بعيداً عن الخصوبة اليهودية. وفي غزة قصة أخرى، إذ يبلغ إجمالي معدل الخصوبة ٩, ٤، مثل نظيره في اليمن، البلد العربي ذي معدل الخصوبة الأعلى. ولكن هذا المعدل يتناقص حتى في غزة: إذ كان أعلى من ٨ في الفترة ١٩٨٧-١٩٩٣.

أحدث الاتجاهات

على الرغم مما سبق، تبقى أرقام السكان في الكيانين مجردة للغاية. وهذه الأرقام تصبح أكثر واقعية عندما ندرسها في المناطق المتنازع فيها لا في البلاد ككل. وتصبح المنافسة الديموغرافية في الواقع شديدة جداً في مناطق النزاع: الضفة الغربية والقدس الشرقية. أمّا في غزة فالوضع مختلف، إذ ما عاد هناك منافسة ديموغرافية منذ سنة ٢٠٠٥، مع رحيل آخر المستوطنين اليهود.

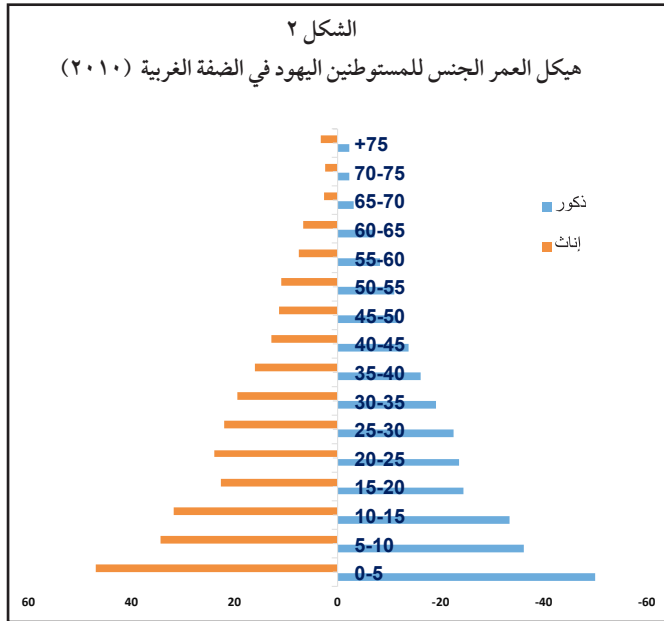
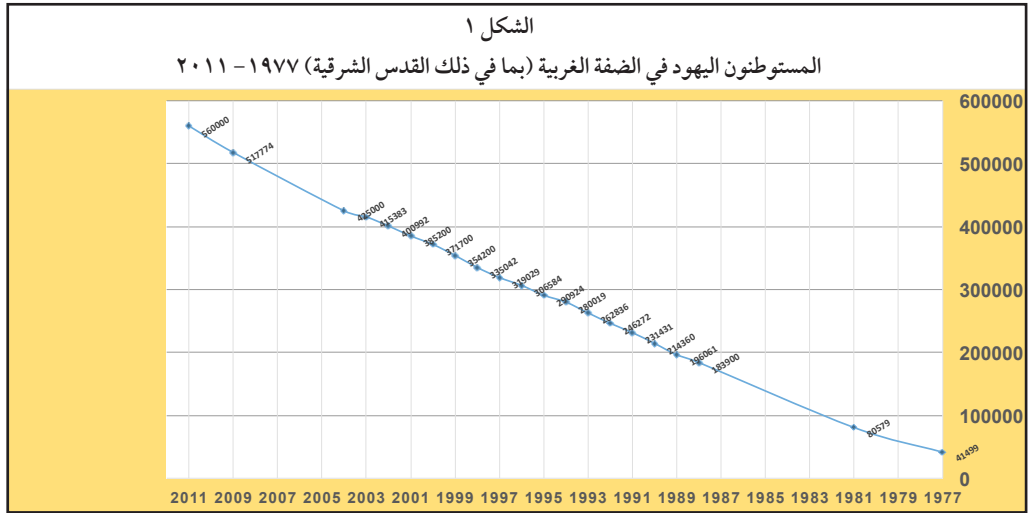
يُظهر الشكل ١ ارتفاع عدد السكان المستوطنين من ٤١, ٠٠٠ في سنة ١٩٧٧ ليناهاز أو يتجاوز ٦٠٠, ٠٠٠ مع نهاية سنة ٢٠١٣، أي ١٥ ضعفاً. ففي الضفة الغربية (بما فيها القدس الشرقية)، يبلغ معدل نمو المستوطنين اليهود الآن ٥ في المئة سنوياً، وهو ضعف المعدل الفلسطيني (٦, ٢ في المئة). وأسباب الزيادة المذهلة لدى المستوطنين اليهود هي:

- انخفاض معدل الوفيات، بسبب ارتفاع متوسط العمر وصغر نسبة الأشخاص المعمرين.

- ارتفاع الخصوبة إلى أعلى من المعدل الفلسطيني.

- هيكل العمر - الجنس بين الشاب (الشكل البياني ٢).

- ارتفاع معدل الهجرة: تدفق ٥٠٠٠ وافد جديد إلى الضفة الغربية ذاتها في سنة ٢٠١٢، ويرتفع هذا الرقم إذا حسبنا القدس الشرقية. وقد جاء قسم من المهاجرين من الجانب الآخر للخط الأخضر (٤٣٠٠)، والباقي من الخارج مباشرة. وبالعكس، يتناقص عدد الفلسطينيين في الضفة الغربية والقدس الشرقية بسبب الهجرة كما يتضح من مسح الهجرة العالمية للأسر في منطقة المتوسط لسنة ٢٠١٠ الذي أجراه الجهاز المركزي الفلسطيني للإحصاء.



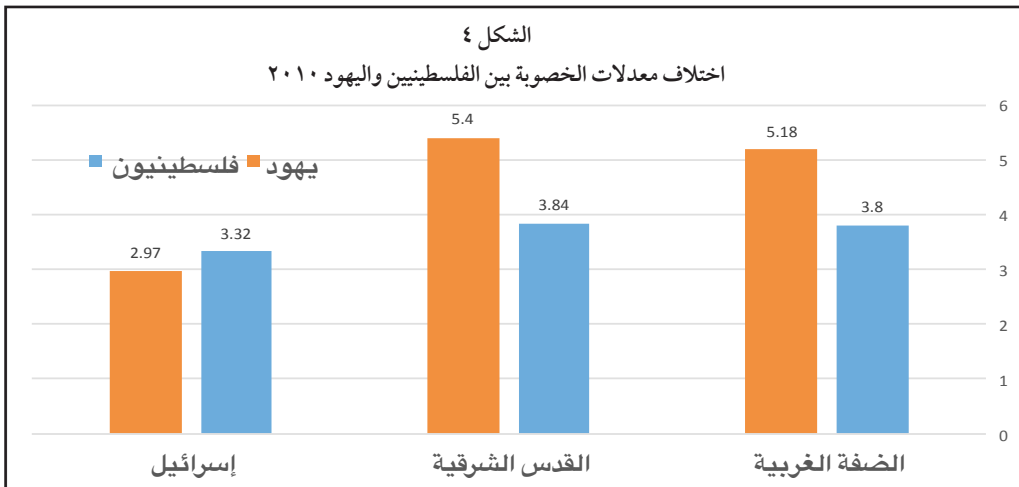
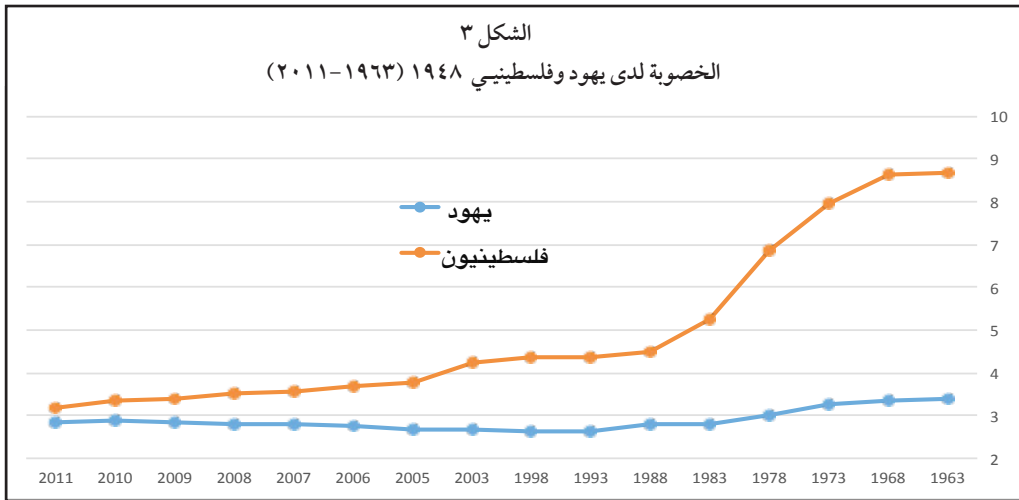
لكن الهجرة لا تروي القصة بأكملها؛ إذ إن معدل خصوبة المستوطنين مرتفع جداً، بحد ذاته ومقارنة بالخصوبة الفلسطينية. وتتيح المجموعة الإحصائية ٢٠١٣ للمكتب المركزي للإحصاء في إسرائيل مثل هذه المقارنات للخصوبة بين المستوطنين اليهود والفلسطينيين في الضفة الغربية «المتنازع فيها»؛ فقد شهدت خصوبة المستوطنين تزايداً طوال العقود الأربعة التالية لحرب ١٩٦٧. وفي سنة ٢٠١٢، بلغت (من دون القدس الشرقية) ٥,٠٥ طفل لكل

امرأة، وهذا أكثر من معدل أفريقيا جنوب الصحراء (٤,٨٠). وفي المقابل، بالكاد وصل معدل فلسطيني الضفة الغربية إلى ٣,٨٠ أطفال، أي أقل بـ ٣,٣ طفل لكل امرأة مقارنة بالخصوبة اليهودية. وترجع هذه الخصوبة المرتفعة إلى انخفاض الأعمار عند الزواج للمستوطنين الإناث والذكور على حد سواء. كما أن معدل منع الحمل أيضاً منخفض، ولا سيما بين اليهود المتدينين في المستوطنات. ولا يبارس الإجهاض إلا في ما ندر، ولا يقوم انخفاض انفصال الزوجين (بسبب هجرة الزوج مثلاً)، بدور مانع كبير بالنسبة إلى اليهود (على عكس الفلسطينيين).

في القدس، تبدو «حرب اليهود» أشد حتى من بقية أجزاء الضفة الغربية؛ ففي حين حافظ فلسطينيو القدس الشرقية قرابة نصف قرن، منذ حرب ١٩٦٧، على خصوبة مرتفعة، على الرغم من العوامل المثبطة المعروفة: التحضر، ومستوى التعليم، والنمط الثالثي للنشاط الاقتصادي... فإنها جاءت كنوع

من التأمين ضد المخاطر السياسية، المرتفعة أكثر من أي مكان آخر في الضفة الغربية. ومنذ ضم الجزء الشرقي من القدس، أضحى الفلسطينيون جزءاً لا يتجزأ من سكان «المدينة الموحدة» ولكن من دون الجنسية الإسرائيلية. أمّا ارتفاع نسبة الخصوبة، أفضل أداة في يدهم، فلم يدم، إذ كان لدى الفلسطينيين المقدسيين ٦٥, ٣ أطفال لكل امرأة في سنة ٢٠١٢، وبالتالي أقل بنسبة ١٦ في المئة من يهود المدينة كلها الذين بلغوا نسبة لافتة قدرها ٣٢, ٤ في السنة نفسها. ويلاحظ أيضاً أن الخصوبة اليهودية في القدس أخذت في الازدياد، حيث كانت ١٦, ٤ في سنة ٢٠٠٩، وبالتالي حققت زيادة كبيرة في غضون ثلاث سنوات. وإذا اقتصرنا فقط على القدس الشرقية التي ضُمت، فإن اختلافات الخصوبة تصبح أكثر حدة. وهي تصل بين المستوطنين، وعددهم ربع مليون نسمة، إلى مستوى مرتفع بشكل لا يصدق قدره ٥٠, ٥ أطفال لكل امرأة وتجاوز المعدل الفلسطيني بنسبة ٥٠ في المئة.

حتى وقت ليس ببعيد، في ستينيات القرن العشرين، كانت الخصوبة الفلسطينية في إسرائيل تُعتبر شذوذاً ديموغرافياً يقارب الرقم القياسي العالمي البالغ ٩ أطفال لكل امرأة. وبالتالي كان لدى فلسطيني ١٩٤٨ (وهم ١٧ في المئة من سكان إسرائيل في ٤ حزيران/ يونيو ١٩٦٧) أطفال أكثر بثلاث مرات مما كان لدى اليهود (الشكل ٣ والشكل ٤).



وقد أُعيد صوغ المشهد الديموغرافي في إسرائيل بشكل كامل؛ فبعد تراجع طفيف، عادت الخصوبة اليهودية إلى الارتفاع. وحتى في أدنى مستوياتها كانت ٦, ٢ طفلاً، أي أعلى كثيراً من معدل الإحلال البالغ ١, ٢. وهي الآن بحدود ٣, ٠٤ (أعلى لليهود المصنفين بحسب الدين). وبالعكس، انخفض إجمالي معدل الخصوبة لفلسطيني ١٩٤٨ إلى الثلث ليصل إلى ٣, ٣ الآن، ولا يزال أعلى ببضع نقاط عشرية من الخصوبة اليهودية، ولكن ليس لفترة طويلة، والتقارب بين خصوبة اليهود وفلسطيني ١٩٤٨ مسألة سنوات لا عقود.

لا يزال هناك بين الفلسطينيين بعض الخصوبة المرتفعة، ولا سيما قطاع غزة بمعدل قدره ٩, ٤ أطفال لكل امرأة، ولكنه في تراجع، وهو الآن نصف ما كان عليه في أثناء الانتفاضة الأولى (١٩٨٧ - ١٩٩٣). وداخل إسرائيل، لا يزال فلسطينيو النقب (قضاء بئر السبع) يحافظون على خصوبة مرتفعة قدرها ٨, ٥ ولكن أعدادهم قليلة (٢٢٠ ألفاً).

توقعات السكان حتى سنة ٢٠٤٨

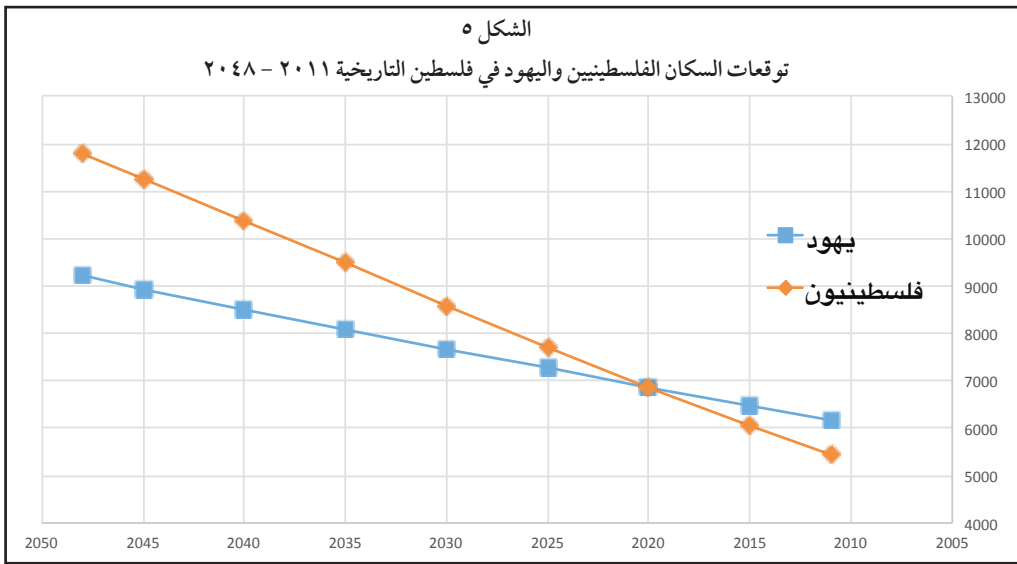
نظراً إلى أن الخصوبة تؤدي الآن دوراً مهيماً في الديناميات السكانية، فإن من الأهمية بمكان رؤية كيف سيؤثر اختلاف معدلاتها في عدد السكان المستقبلي وفي قضايا بناء الدولة في إسرائيل - فلسطين ككل (الجدول ١). وتحقيقاً لهذه الغاية، وضعنا توقعات لمختلف المجموعات السكانية حتى سنة ٢٠٤٨، بما يعنيه من مرور مئة سنة على النكبة. أما توقعات المكتب المركزي للإحصاء في إسرائيل، فتمتد إلى تاريخ أقرب هو سنة ٢٠٣٥.

الجدول ١

توقعات تطور السكان الفلسطينيين (الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة وفلسطينيو ١٩٤٨)
مقارنة بالسكان اليهود (٢٠١١ - ٢٠٤٨)

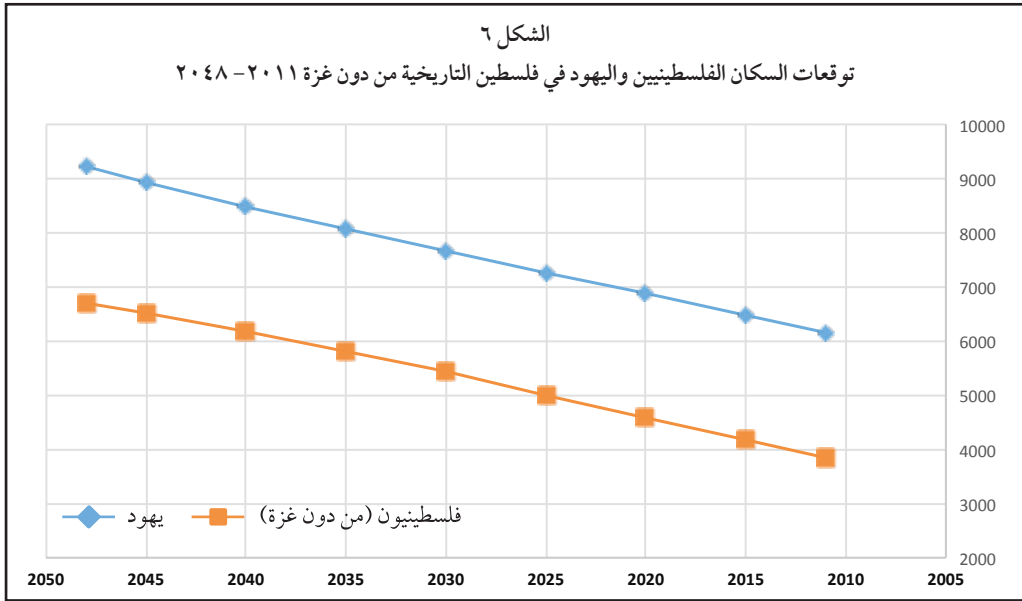
فلسطينيو ١٩٤٨	غزة	القدس	الضفة الغربية	فلسطينيون	يهود	
١٢٧٦	١٦٥٨	٢٨٤	٢٢٨٥	٥٥٠٣	٦١٥٥	٢٠١١
١٤٠٠	١٨٨٢	٣٠٨	٢٤٧٧	٦٠٦٧	٦٤٧٥	٢٠١٥
١٥٢٨	٢١٨٦	٣٣٨	٢٧٢٠	٦٧٧٢	٦٨٧٢	٢٠٢٠
١٦٧٦	٢٥١٠	٣٦٨	٢٩٦٠	٧٥١٤	٧٢٦٨	٢٠٢٥
١٨٣٦	٢٨٤٩	٣٩٦	٣١٩٢	٨٢٧٣	٧٦٦٦	٢٠٣٠
١٩٩٥	٣١٩٣	٤٢٣	٣٤٠٤	٩٠١٥	٨٠٧١	٢٠٣٥
٢١٤٥	٣٥٣١	٤٤٧	٣٥٩٤	٩٧١٧	٨٤٩٧	٢٠٤٠
٢٢٩٠	٣٨٤٩	٤٦٧	٣٧٥٨	١٠٣٦٤	٨٩٣٩	٢٠٤٥
٢٣٧٩	٤٠٢٥	٤٧٧	٣٨٤٣	١٠٧٢٤	٩٢١٢	٢٠٤٨

يبين الجدول ١ أن عدد الفلسطينيين في سنة ٢٠٢٠ في كامل المشهد سيكون مساوياً لعدد اليهود: ٩, ٦ ملايين (على الرغم من أن البعض يدّعي أن ذلك حدث فعلاً في أوائل سنة ٢٠١٢، من دون الأخذ بعين الاعتبار تباين اتجاهات الخصوبة). وقد يساعد الشكل ٥ في إثبات أن دولة واحدة على كامل فلسطين التاريخية لا يمكن تصورها، إن كان هناك من لا يزال بحاجة إلى هذا الإثبات. فالفلسطينيون، بطبيعة الحال، لن يقبلوها على الإطلاق. وبالنسبة إلى الإسرائيليين أنفسهم، سيصبح الاحتلال الذي أدى أساساً إلى نشوء مشكلة ديموغرافية معقدة، أكثر خطورة في المستقبل. كيف يمكن أن تتصور ٩, ٢ ملايين يهودي (٤٦ في المئة) يسيطرون على أغلبية فلسطينية مكونة من ١١, ٨ مليون فلسطيني في سنة ٢٠٤٨؟ هذه أدلة الفلسطينيين ومعظم الإسرائيليين على حد سواء، ومع ذلك ثمة أقلية إسرائيلية تقدم رأياً مخالفاً مؤداها أن دولة واحدة ممكنة، وبالتحديد على أسس ديموغرافية.



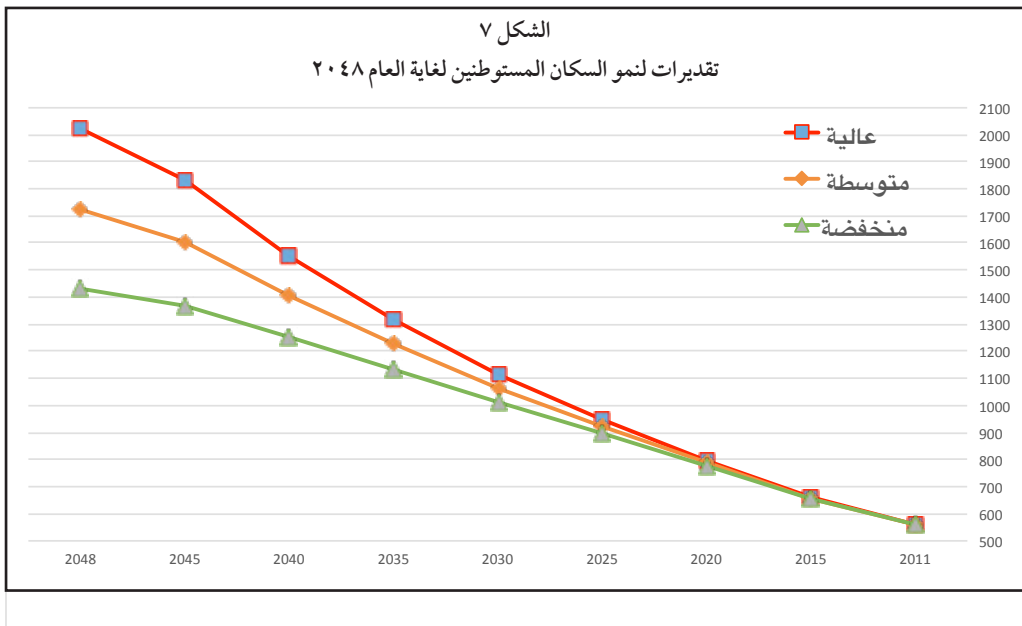
أي مستقبل من دون غزة؟

ما المنطق الذي تستند إليه هذه الطريقة في التفكير؟ منذ سنة ٢٠٠٥، فصل قطاع غزة عن منطقة الاحتلال والاستيطان المباشر. وحدث هذا بشكل رئيس لأسباب ديموغرافية. واعتبر رئيس الوزراء آنذاك أريئيل شارون أن ٨٠٠٠ مستوطن لا يمكن أن يواجهوا ١, ٥ مليون فلسطيني إلى الأبد. ولكن الآثار المترتبة عن فصل مصير غزة تتجاوز كثيراً تلك الأرقام المجردة. وبالتالي ماذا يمكن أن تكون وجهات النظر الديموغرافية في إسرائيل وفلسطين إذا فصلت غزة (الشكل ٦). ومع الحفاظ على كامل الأراضي تقريباً (ناقص ٣٦٠ كم^٢)، سيبقى في إسرائيل سنة ٢٠٤٨ أغلبية يهودية مريحة (٩, ٢ ملايين يهودي في مقابل ٦, ٧ ملايين فلسطيني في الضفة الغربية بما في ذلك القدس الشرقية وإسرائيل). والآثار السياسية واضحة، حيث يصبح من الممكن تصور دولة واحدة بأغلبية سكانية يهودية، على الرغم من صعوبة إدارتها. وإلى جانب ذلك، يبيّن اتجاه المنحنيات اليهودية والفلسطينية أن التفوق العددي بعد سنة ٢٠٤٨ سيبقى لليهود. وبطبيعة الحال، فإن وضع الأقلية الفلسطينية مفتوح أمام كثير من الأسئلة التي تتجاوز نطاق هذه الدراسة لأنها تشمل متغيرات ديموغرافية إضافية. هل هذا تطهير عرقي آخر؟ هل هو تقسم لقاعدة الفلسطينيين الرئيسة إلى عدد معين من الأوطان/الباتوستانات؟



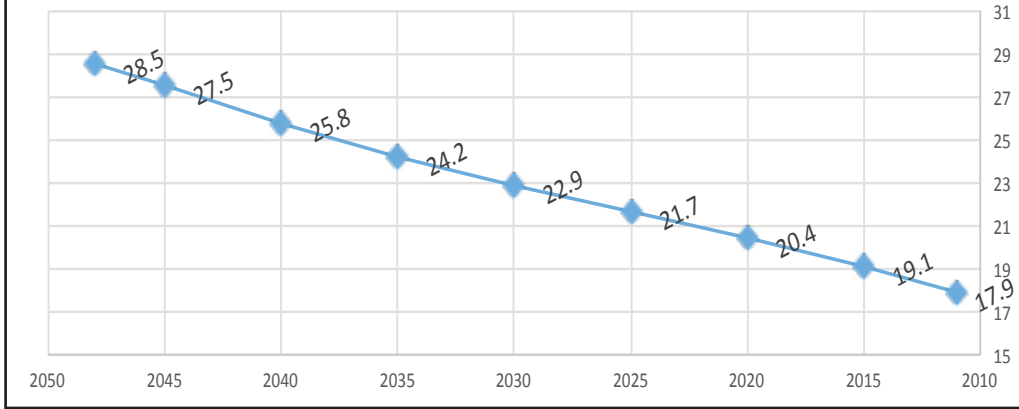
الارتفاع غير المتوقع لعدد السكان المستوطنين في الضفة الغربية والقدس

يعرض الشكل ٧ ثلاثة أنواع من النمو السكاني للمستوطنين من سنة ٢٠١١ لغاية سنة ٢٠٤٨ استناداً إلى افتراضات مختلفة للخصوبة والهجرة (وسيناريو واحد للعمر المتوقع). ويبيّن الشكل ٨ نسبة المستوطنين إلى مجموع سكان الضفة الغربية، ويكاد يكون من المستحيل أن نتخيل بحكم تباين الخصوبة كيف سيمثل المستوطنون حصة كبيرة من سكان الضفة الغربية.



الشكل ٨

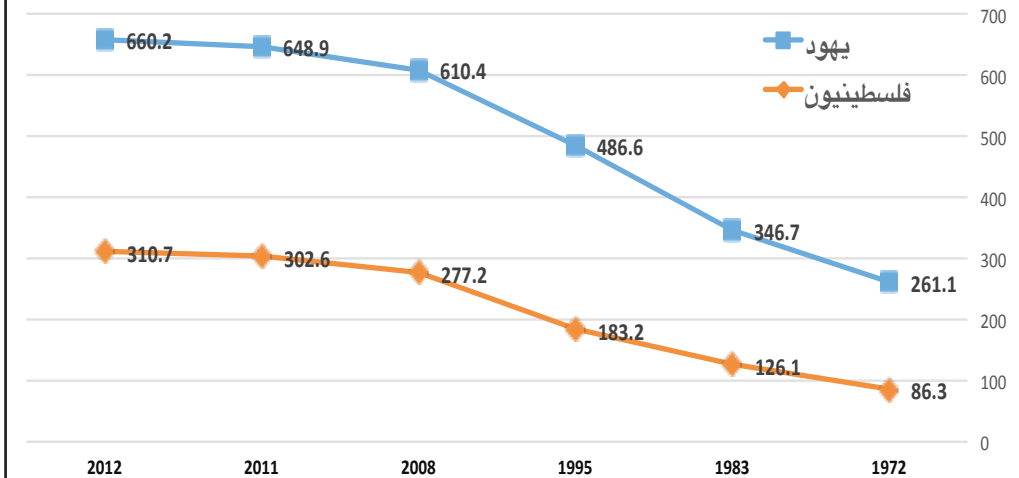
تقديرات لنسبة المستوطنين اليهود في الضفة الغربية (بما في ذلك القدس الشرقية)



يشكّل مستوطنو القدس أقل قليلاً من نصف إجمالي عدد المستوطنين: ٢٦٠,٠٠٠ مستوطن الآن. وقد كانت هجرة اليهود إلى المدينة المقدسة الأداة المفضلة في إبقاء فلسطيني القدس دون عتبة ٣٠ في المئة «المقبولة». واليوم، تحتل نسبة الفلسطينيين في المدينة «الموحدة» بأسرها المرتبة الأعلى. وبالنسبة إلى الإسرائيليين، كانت التوقعات قاتمة قبل عقد من الزمن. ولذلك، توقع الديموغرافي سيرجيو ديلا بيرغولا زيادة النسب الفلسطينية إلى درجة قد يحدث معها «تحول محتمل لغالبية سكان القدس من الأجزاء اليهودية إلى الأجزاء العربية (وغيرها)». وفي ذلك الوقت، كان يُعتقد أن التباين الكبير في النمو يمكن أن يقوض أسرلة المدينة المقدسة. ولكن في الآونة الأخيرة غير عاملان هذا التوزيع: أولاً، زيادة البناء في المستوطنات التي جذبت مستوطنين هاجروا من إسرائيل ذاتها وبشكل مباشر من الخارج، وثانياً، الانقلاب غير المتوقع لاتجاهات الخصوبة، وبالتالي توسيع فجوة الخصوبة مع تلك الفلسطينية. ولذلك، يمكن في وقت قريب بلوغ هدف ٣٠ في المئة من الفلسطينيين فقط في القدس.

الشكل ٩

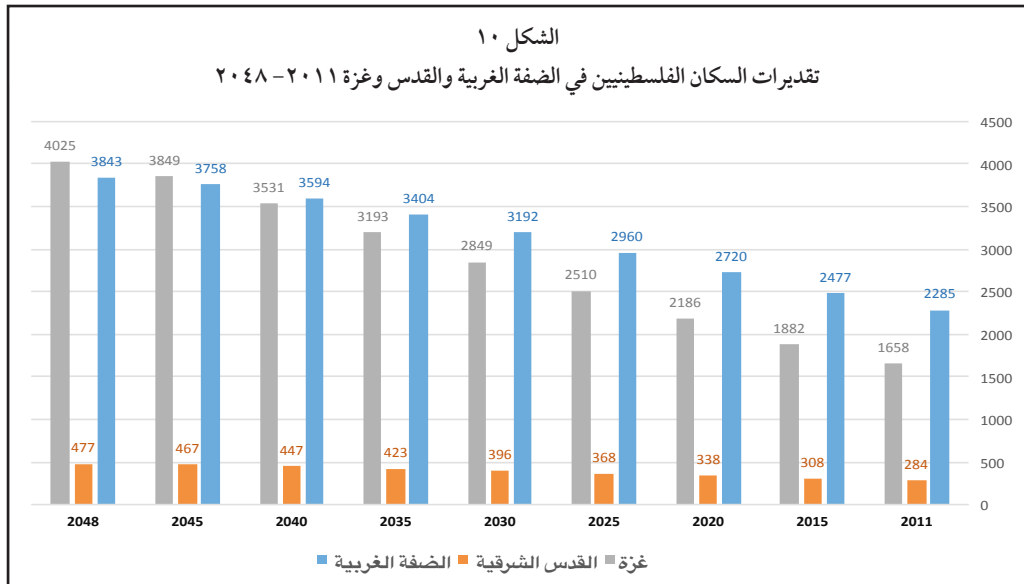
النمو السابق للسكان الفلسطينيين واليهود في القدس ١٩٧٢-٢٠١٠



التبعات السياسية للتحويلات الديموغرافية بين الفلسطينيين والإسرائيليين

من المعروف جيداً أن السياسة والاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية تؤثر في ديناميات السكان، ولكن المعادلة قد تكون معكوسة، فالعوامل الديموغرافية نفسها قد تؤثر في السياسة بصورة واضحة.

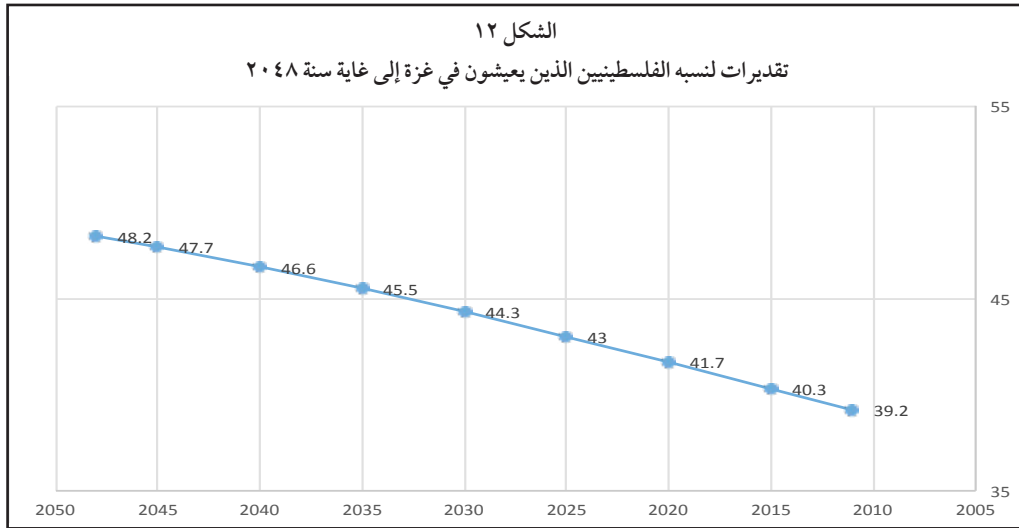
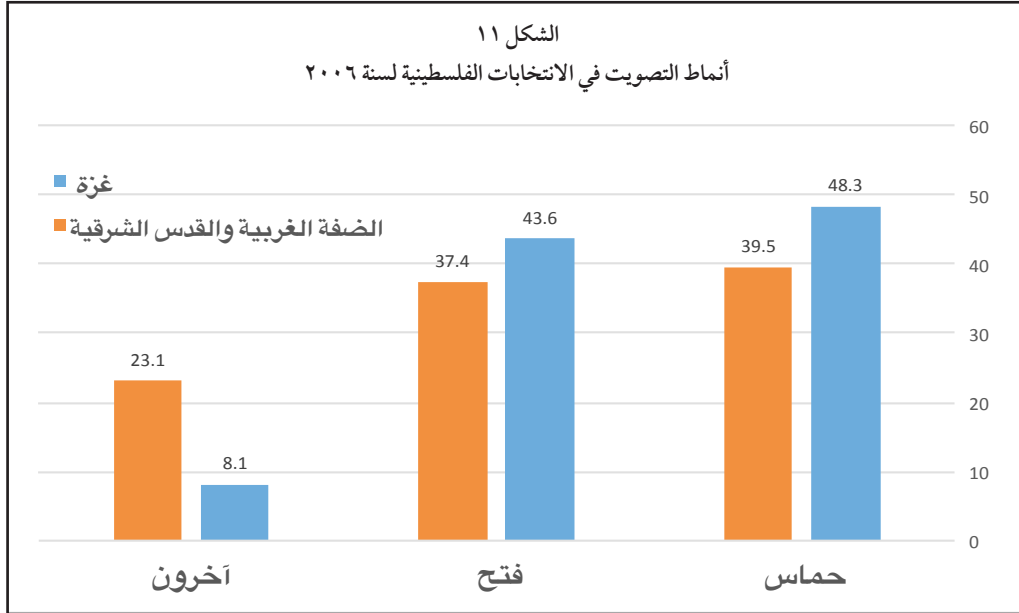
بالنسبة إلى الفلسطينيين، قد توسع اختلافات الخصوبة بين الضفة الغربية وقطاع غزة الفجوة التي بدأت مع الفصل الفعلي لغزة سنة ٢٠٠٦. ومن الآن فصاعداً، حتى سنة ٢٠٤٨، سيكون النمو السكاني في الضفة الغربية (بما فيها القدس الشرقية) أقل منه في غزة (الشكل ١٠). وفي الضفة الغربية، الخصوبة أقل والهجرة الخارجية كبيرة للغاية. والوضع نفسه في القدس الشرقية أسوأ حتى، حيث تعتمد السلطات والمستوطنون الإسرائيليون على التضييق على الفلسطينيين لدفعهم إلى الهجرة. وعلى العكس، فإن الهجرة من قطاع غزة منخفضة جداً، ولذلك ستشهد زيادة السكان فيها ارتفاعاً كبيراً.



وحتى لو انخفضت الخصوبة في غزة إلى مستوى الإحلال (١, ٢) في سنة ٢٠٤٨، فإن عدد سكان غزة، البالغ ١,٨ مليون الآن، سيتجاوز ٤ ملايين حينها. وسيبقى فوق ٣,٨ ملايين إذا انخفضت الخصوبة إلى المستوى اللبناني أو الأوروبي الحالي. وفي الحالة الأكثر تطرفاً، أي ثبات الخصوبة، سوف يتجاوز ٥ ملايين نسمة.

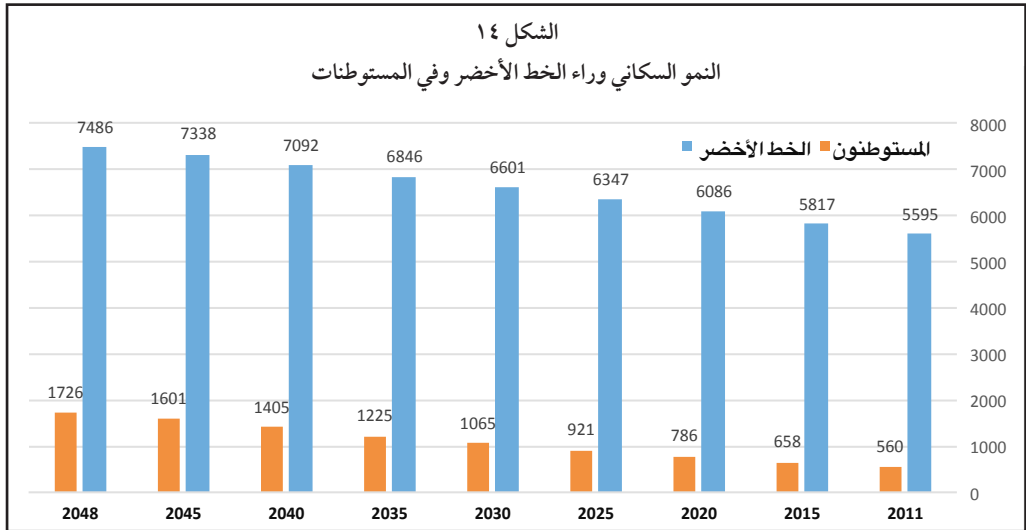
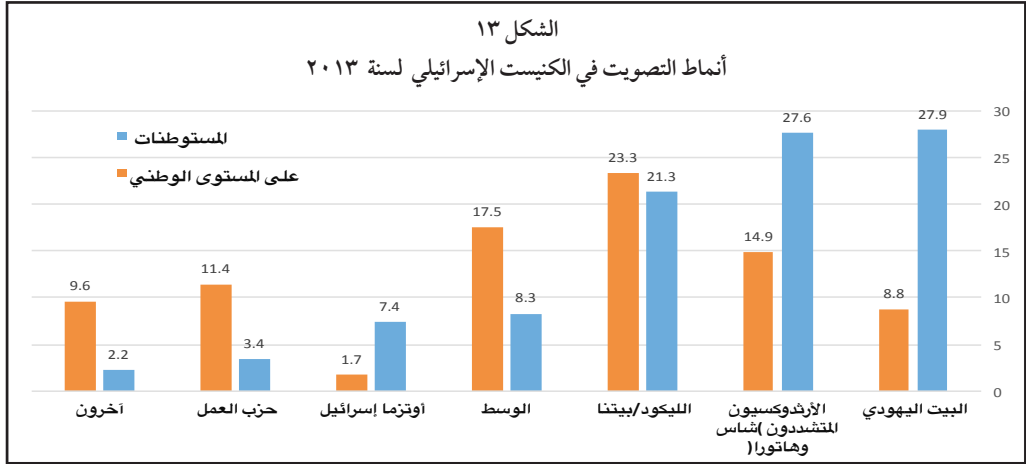
ما هو الأثر السياسي المحتمل لاتجاهات الخصوبة المتباينة بين غزة والضفة الغربية؟ لقد أظهرت الانتخابات الفلسطينية الأخيرة في سنة ٢٠٠٦ انقساماً سياسياً مهماً بين شطري الأراضي الفلسطينية المحتلة (الشكل ١١)؛ إذ فازت حماس بأغلبية شبه مطلقة في غزة (٤٨,٣ في المئة)، بينما حصلت في الضفة الغربية على ٣٩,٥ في المئة فقط. وبطبيعة الحال، فإن المواقف السياسية وترجمتها إلى أنماط انتخابية ظواهر عابرة، ولا يمكن افتراض دوام هذه الأنماط إلى الأبد. ومع ذلك، فإن التحويلات الديموغرافية للسكان (وبطريقة أو بأخرى الهيئة الانتخابية) من الضفة الغربية إلى غزة، التي تبلغ حصتها من إجمالي السكان

في الأراضي الفلسطينية المحتلة ٣٩ في المئة الآن وسوف تقترب من الأغلبية المطلقة (٤٨ في المئة) في سنة ٢٠٤٨ (الشكل ١٢)، قد تؤثر في نتائج الانتخابات الفلسطينية المستقبلية.



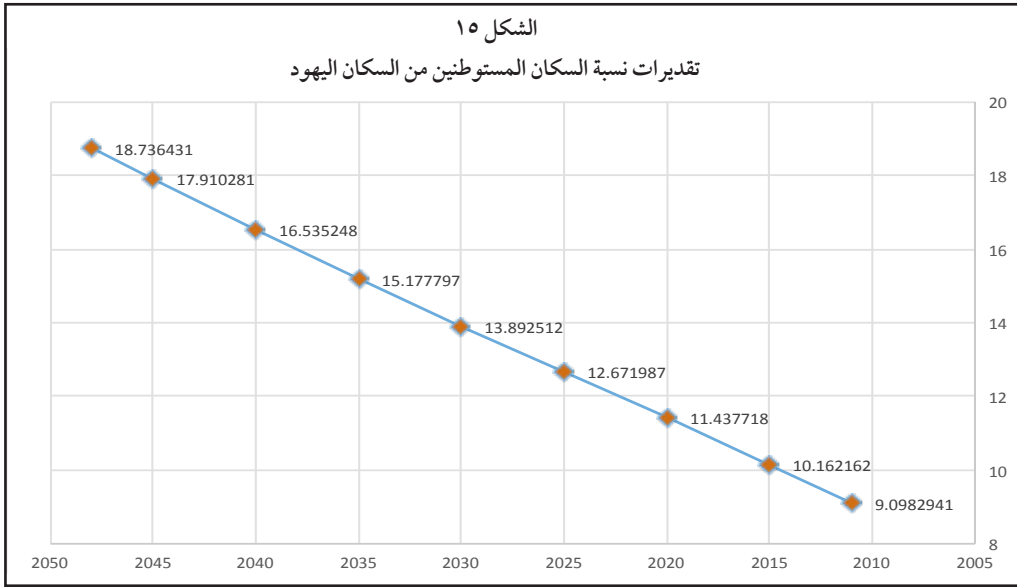
في انتخابات الكنيست سنة ٢٠٠٩، صوّت المستوطنون الإسرائيليون بأغلبية ساحقة لأحزاب اليمين المتطرف، ولليمين والأحزاب الدينية؛ وهو اتجاه ضخم مؤخرًا. وفي انتخابات الكنيست سنة ٢٠١٣، حصل حزب اليمين المتطرف «البيت اليهودي» بقيادة نفتالي بنيت على ١٢ مقعدًا وعلى أكبر عدد من الأصوات، وكان الحزب الأول في المستوطنات (الشكل ١٣). وبالتالي ازداد إجمالي عدد ناخبي الأحزاب المؤيدة للضم إلى ٨٤ في المئة: البيت اليهودي (٢٨ في المئة)؛ الليكود/بيتنا (حزب أفيدور ليرمان) (٢١ في المئة)؛ الأرثوذكس المتشدّدون (٢٨ في المئة)؛ أوتزما إسرائيل (حزب كاهانا سابقًا) (٧ في المئة). ولذلك، قد

يترجم التحوّل في عدد السكان من «الخط الأخضر» إلى المستوطنات آلياً إلى زيادة ناخبي الأحزاب اليمينية والقومية والدينية. ومن المرجح أن يرتفع عدد المستوطنين من ٦,٠ مليون نسمة حالياً إلى ١٧,٧ مليون نسمة (١٨ في المئة من السكان اليهود في سنة ٢٠٤٨) وفق «المتغير المتوسط» للتوقعات السكانية. وأثر هذا التحوّل في نتائج الانتخابات المقبلة واضح وضوح الشمس (الشكل ١٤، والشكل ١٥).



خاتمة

يتميز تاريخ إسرائيل وفلسطين الديموغرافي الحديث بانعكاس الاتجاهات الديموغرافية؛ فعلى صعيد الفلسطينيين، يتسارع التحوّل الديموغرافي وتنخفض معدلات الخصوبة، عكس كل التوقعات. وأصبح هذا الاتجاه مهماً حقاً اعتباراً من بداية الانتفاضة الثانية سنة ٢٠٠٠. وبالنسبة إلى يهود إسرائيل، على العكس، الخصوبة في تزايد الآن بالنسبة إلى مجموع السكان، وخاصة في مناطق الاحتكاكات، الضفة الغربية والقدس.



إنه نمط فريد لا نلاحظه في أماكن أخرى من العالم، وهو أن السكان اليهود في إسرائيل، الذين يتمتعون بمعظم جوانب الحداثة (مستوى المعيشة والتعليم والتحضّر والعولمة)، يرفضون أحد أهم مؤشرات الحداثة، وهو تفضيل عدد أقل من الأطفال، أي الأسرة الصغيرة المكونة من طفلين. فالتقليدية أو العائلية تتغلب على العصرية عندما يتعلق الأمر بالديموغرافيا. كما أن الطلب على الأطفال تعزز بفضل سياسة الدولة في زيادة الخصوبة اليهودية عبر تدابير مباشرة وغير مباشرة. وقد أنفقت مليارات الدولارات لهذا الغرض، لمكافحة ارتفاع الطلب على الأطفال من جانب السكان اليهود.

على العكس من ذلك، تتجه الخصوبة الفلسطينية نحو الانخفاض بسرعة في الضفة الغربية في القدس، وفي غزة، وداخل إسرائيل ذاتها، نتيجة مجموعة معقدة من عوامل العصرية وتحويل التمييز من الأسرة إلى القيم الفردية وما يسمى «الانتقال المدفوع بالفقر» الذي تسارع بحدة منذ الانتفاضة الثانية.

على صعيد السياسات، شجّعت الخصوبة الإسرائيلية وراء الخط الأخضر وفي المستوطنات عبر سياسة سكانية حكومية لزيادة الخصوبة اليهودية. وقد أنفقت مليارات الدولارات لهذا الغرض. على الرغم من ذلك، ووراء الكواليس، ربما يكون هذا العكس لاتجاهات الخصوبة إحدى أهم الظواهر التي يتعيّن ملاحظتها في فلسطين التاريخية، وإن لم تكن بحد ذاتها متعلقة بالمجال السياسي. ولكن تداييمها السياسية الواضحة هي عوامل مدمرة للشعب الفلسطيني، أي على المؤسسات المستقبلية في المنطقة وعلى احتمال تنفيذ حل دولة واحدة أو دولتين. وفي حين أصبح ارتفاع النمو السكاني والخصوبة سلاحاً فعالاً في يد السلطات الإسرائيلية لتحقيق أهدافها المعلنة أو المخفية، من الصعب أن نتصور كيف يستطيع الفلسطينيون عكس اتجاهاتهم السكانية الحالية المنخفضة. وربما ليست آخر المفارقات أنهم تخلّوا عن الديموغرافيا باعتبارها وسيلة لحماية أرضهم في وقت لا يزال «انفجارهم السكاني» يتصدر عناوين الأخبار.

المراجع

العربية

كرباج، يوسف. «الرهان الديموغرافي في الصراع على هوية فلسطين». مجلة الدراسات الفلسطينية، السنة ١٦، العدد ٦٣، صيف ٢٠٠٥.

الأجنبية

Books

- Clarens, Katia. *Une Saison à Gaza: Voyage en territoire assiégé*. Paris: J.-C. Lattès, 2011.
- Clarke, John I. [et al.] (eds.). *Population and Disaster*. Oxford; New York: Blackwell in association with International Geographical Union, Commission on Population Geography, 1989. (Institute of British Geographers Special Publications Series; 22)
- Courbage, Youssef and Emmanuel Todd. *A Convergence of Civilizations: The Transformation of Muslim Societies around the World*. Translated by George Holoch. New York: Columbia University Press, 2011.
- Courbage, Youssef and Philippe Fargues. *Christians and Jews under Islam*. Translated by Judy Mabro. London; New York: Tauris, 1997.
- Dalen, Kristin and Jon Pedersen. *The Future Size of the Palestinian Population of the West Bank and Gaza Strip*. Oslo : FAFO, 2004. (FAFO-report; 433)
- Faitelson, Yaakov. *Demographic Trends in the Land of Israel (1800-2007)*. Jerusalem: Institute for Zionist Strategies (IZS), 2008.
- Geries, Sabri. *Les Arabes en Israël*. Précédé de les Juifs et la Palestine par Eli Lobel. Paris : F. Maspero, 1969. (Cahiers libres ; 151-152)
- Kanaaneh, Rhoda Ann. *Birthing the Nation: Strategies of Palestinian Women in Israel*. With a Foreword by Hanan Ashrawi. Berkeley: University of California Press, 2002. (California Series in Public Anthropology; 2)
- Migration Survey in the Palestinian Territory, 2010*. Ramallah, Palestine: Press Release, 2010.
- Palestinian Central Bureau of Statistics. *Palestinian Family Health Survey, 2006: Final Report*. Ramallah, Palestine: The Bureau, 2007.
- Portugese, Jacqueline. *Fertility Policy in Israel: The Politics of Religion, Gender, and Nation*. Westport, Conn.: Praeger, 1998.
- Reich, Bernard and Gershon R. Kieval (eds.). *Israeli Politics in the 1990s: Key Domestic and Foreign Policy Factors*. New York: Greenwood Press, 1991.

(Contributions in Political Science; no. 285)

Roy, Sara. *The Gaza Strip: The Political Economy of De-development*. Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 1995.

Schmelz, Uziel Oskar, Paul Glikson, and Sergio DellaPergola (eds.). *Papers in Jewish Demography, 1981: Proceedings of the Demographic Sessions Held at the 8th World Congress of Jewish Studies, Jerusalem, August 1981*. Jerusalem: Institute of Contemporary Jewry, Hebrew University of Jerusalem, 1983. (Jewish Population Studies; no. 16)

Statistical Abstract of Israel, 2013. [Jerusalem]: Central Bureau of Statistics, 2014.

United Nations, Department of Economic and Social Affairs. *World Population Prospects as Assessed in 2012*. New York: United Nations, 2014.

Zimmerman, Bennett, Roberta Seid and Michael L. Wise. *The Million Person Gap: The Arab Population in the West Bank and Gaza*. Ramat Gan, Israel: Begin-Sadat Center for Strategic Studies, Bar-Ilan University, 2006. (Security and Policy Studies; no. 65)

Periodicals

Anson, Jon and Avinoam Meir. «Religiosity, Nationalism and Fertility in Israel.» *European Journal of Population*: vol. 12, no. 1, March 1996.

Courbage, Youssef. «Les Enjeux démographiques en Palestine après le retrait de Gaza.» *Critique internationale*, no. 31, 2006.

_____. «Reshuffling the Demographic Cards in Israel/Palestine.» *Journal of Palestine Studies*: vol. 28, no. 4, Summer 1999.

Dellapergola, Sergio. «Jerusalem's Population, 1995–2020: Demography, Multiculturalism and Urban Policies.» *European Journal of Population*: vol. 17, no. 2, June 2001.

Fargues, Philippe. «Protracted National Conflict and Fertility Change: Palestinians and Israelis in the Twentieth Century.» *Population and Development Review*: vol. 26, no. 3, September 2000.

Hass, Amira. «On finit par se demander pourquoi on a mis des enfants au monde: Cette «double autorité» qui écartèle les Palestiniens.» *Le Monde Diplomatique*: Octobre 2008.

Khawaja, Marwan. «The Fertility of Palestinian Women in Gaza, the West Bank, Jordan and Lebanon.» *Population-E (INED)*: vol. 58, no. 3, 2003.

_____. «The Recent Rise in Palestinian Fertility: Permanent or Transient?.» *Population Studies*: vol. 54, no. 3, November 2000.

_____ and Sara Randall, «Intifada, Palestinian Fertility and Women's Education.» *Genus*: vol. 62, no. 1, January - March 2006.

_____, Shireen Assaf and Yara Jarallah. «The Transition to Lower Fertility in the West

Bank and Gaza Strip: Evidence from Recent Surveys.” *Journal of Population Research*: vol. 26, no. 2, June 2009.

Zimmerman, Bennett and Sergio DellaPergola. “What Is the True Demographic Picture in the West Bank and Gaza?: A Presentation and a Critique.” *Jerusalem Issue Brief*: vol. 4, no. 19 (March 2005), on the Web: <<http://jcpa.org/brief/brief004-19.htm>>.

Documents

Baskin, Gershon. “Palestinian Beware: Unilateralism is gaining Steam in Israel.” (Amin (Arabic Media Internet network, 16 October 2005). On the Web: <<http://www.amin.org/eng/uncat/2005/oct/oct16-0.html>>.

Chamie, Joseph and Barry Mirkin. “The Million Missing Israelis.” (Middle East Channel, June 2011), on the Web: <http://mideast.foreignpolicy.com/posts/2011/07/05/the_million_missing_israelis>.

Courbage, Youssef. “Israel’s Capacity to Absorb Palestinian Refugees: Demographic Scenarios, 2008-2058.” (Working Paper, 2008).

Ettinger, Yoram. “From Demographic Fatalism to Demographic Optimism.” (Ettinger Report, 23 June 2011).

“Land Grab: Israel’s Settlement Policy in the West Bank.” Researched and Written by Yehezkel Lein in Collaboration with Eyal Weizman; Edited by Yael Stein (Comprehensive Report, B’Tselem (Israeli Information Center for Human Rights in the Occupied Territories), May 2002). On the Web: <http://www.bteslem.org/English/Publications/Summaries/Land_Grab_2002.asp>.

Conferences

Completing the Fertility Transition (Expert Group Meeting, United Nations, Department of Economic and Social Affairs, Population Division, 2002).

“New Generations and the Future of International Migration: South of the Mediterranean.” (Workshop 14 / 3rd Mediterranean Social and Political Research Meeting, Montecatini Terme and Florence, 20-24 March 2002).